وحدة الهجرة القسرية واللاجئين
Forced Migration and Refugee Unit

جامعة بيرزيت
BIRZEIT UNIVERSITY
معهد ابراهيم أبو لغد للدراسات الدولية
Ibrahim Abu-Lughod Institute of International Studies

Working Paper Series – Conferences & Public Events Module

Ibrahim Abu-Lughod Institute of International Studies – Birzeit University

قراءة سوسيولوجية للمجتمع الفلسطيني في قطاع غزة

SOCIOLOGICAL READING OF THE PALESTINIAN SOCIETY IN THE GAZA STRIP

أباهر السقا

Abaher El Sakka

معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية – جامعة بيرزيت

سلسلة أوراق عمل 22/2011 (عربي) – نموذج دراسات الهجرة واللجوء

IALIIS-BZU-WPS 2011/22 (ARA)

CPM Module

Editor-in-Chief: Asem Khalil

Editorial Board: Yaser Amouri, Raed Bader, Helga Baumgarten, Youssef Courbage, Philippe Fargues, Roger Heacock, Marwan Khawaja, Ray Jureidini, Mehrene Larudee Majdi Al-Malki, Magid Shihadeh.

Design & Layout: Yasser Darwish

Citations' Revision: Ashraf Siam

2011

*** Co-financed by the Ibrahim Abu-Lughod Institute of International Studies (IALIIS) - Birzeit University (BZU) & the International Development Research Centre (IDRC), Canada. The views expressed in this publication cannot in any circumstances be regarded as the official position of IALIIS, BZU or IDRC. The IALIIS can be reached at: ialiis@birzeit.edu**

Electronic copy available at: http://ssrn.com/abstract=1764260

قراءة سوسيولوجيّة للمجتمع الفلسطيني في قطاع غزة

أباهر السقا*

1. تقديم

سأحاول في مداخلتي هذه تقديم قراءة سوسيولوجيّة للمجتمع الفلسطيني في قطاع غزة، وذلك ضمن محورين: المحور الأوّل سيتناول الخصائص السوسيولوجيّة العامة للمجتمع الفلسطيني في القطاع، وذلك عبر شقّين، يعرض الأوّل السّمات العامة وبعض الخصوصيّات، والثاني والذي هو انعكاس للأوّل: تهميش غزّة فلسطينيًا. إنّها محاولة تفكيك لآليات التّهميش المقصودة وغير المقصودة، وجعلها مرئية، فالتّهميش هو "عنف رمزي" بمعنى عنف ناعم ولا محسوس ولا مرئي والذي يمارَس في جوهره بالطرق الرمزيّة للاتّصال والمعرفة، وهو كذلك متأصّل على شكل توسيمات لا واعية من الإدراك الحسّي والتقييم، أي محاولة تقديم قراءة لما وراء ما يمكن تسميته بموضوعيّة الحس المشترك المتّفق عليه على أنّه تسوية عمليّة ومعتقدية (doxique) على معنى الممارسات (Bourdieu 1979, 59).

2. المجتمع الفلسطيني في قطاع غزة

سأعرض هنا بعض الخصائص التي تهمني في التحليل، وليس كل الخصائص العامة، والتي قد تفسّر بعض الخصوصيّات للمجتمع الفلسطيني الغزي. قطاع غزة: 363 كم^2 يمثل 3.2 بالمائة من مساحة فلسطين التاريخيّة، يعتبر من المناطق الأكثر كثافة بالسكان بمعنى ما يقارب أكثر من 2000 فرد للكم^2 الواحد. سجن كبير بسماء مفتوحة. مدينة غزة هي المدينة الأكبر بين كل المدن الفلسطينيّة على الإطلاق. يشكل اللاجئون نسبة 85 بالمائة من السكان. في بداية الصّراع العربي – الكولونيالي "الإسرائيلي"[1] اعتبرت منطقة غزة من المناطق الفقيرة في فلسطين، تميز نظامها الاقتصادي– الاجتماعي بكونه نظاماً إقطاعياً وعشائرياً، وذلك على مستوى العلاقات الاجتماعية. وكان قطاع غزة بعيداً بالمعنى المعاش (اى بعيدا عن دائرة الصدام اليومية مع المستعمرين اليهود الجدد) عن الصراع الفلسطيني – "الإسرائيلي" الذي تركز في مناطق فلسطين الشمالية (عكا وصفد وحيفا ويافا) ومناطق القدس وضواحيها. كان قطاع غزة يضم ثمانين ألف نسمة، جزء من سكانه كان يعمل في قطاع الزّراعة والحرف التقليديّة وبعض

* د.أباهر السقا، أستاذ علم اجتماع –دائرة علم الاجتماع وعلم الإنسان جامعة بيرزيت، حامل لشهادة الدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة نانت– فرنسا.خريج المدرسة العليا لإدارة التنظيمات الاجتماعية –سانت تيتيان–فرنسا. عمل كمحاضر في جامعة نانت من 1998–2006 وزميلا باحثا في المعهد الفرنسي لدراسات التنمية وعضو مركز نانت للدّراسات السوسيولوجيّة. له العديد من الدّراسات والمقالات العلميّة.

[1] يستخدم الباحث اسم "إسرائيل" بين مزدوجتين وذلك طبقا للمقاربة السوسيولوجية التي تضع الاصطلاحات أو التسميات العلائقية بين ازدواجتين لتبيان السجلات القائمة عنه ولإظهار أن الاصطلاح بين قوسين وذلك لأن "إسرائيل" هي وتسميتها والاعتراف بها جزء لا يتجزأ من هذا السجال، ولوضع مسافة بين عالم الاجتماع والمسمى المتداول ضمن مسعى لإعادة بناء المسمى وليس التعامل معه كمعطى اجتماعي.

Electronic copy available at: http://ssrn.com/abstract=1764260

الصناعات، وفي سنة 1948 وصل للقطاع ما يقارب 200 ألف لاجئ ولاجئة من الساحل الفلسطيني من يافا وقضائها، والجزء الأكبر من المناطق الجنوبيّة المرتبطة بغزة تاريخيًا من بئر السبع والقرى والبلدات المجاورة. وهذا معناه أنّ المجتمع الفلسطيني في قطاع غزة يضم كل التشكيلات الفلسطينية المختلفة كباقي التجمعات الفلسطينيّة الأخرى.

2–1. الفترة المصريّة

وقع قطاع غزة تحت حكم الإدارة المصريّة، تحت حكم حاكم إداري عسكري مصري، حيث خضعت كل المؤسسات الفلسطينيّة للقاهرة. وفي عام 1950، حُولت العملة الفلسطينيّة إلى المصريّة، والمناهج إلى المصريّة، وغيرت الخرائط، وفتحت مصر أبوابها لسكان قطاع غزة للدراسة والعمل، وذلك حتى بدايات سياسة الانفتاح للسادات، في حدود عام 1978. انشأ الفلسطينيون هيئة سياسيّة واحدة، هي الهيئة الفلسطينيّة العليا في غزة 1948، حيث مثلت غزة آخر معقل فلسطيني بالمعنى المؤسساتي أي ما تبقى من فلسطين ومن غزة، فتم إعلان "استقلال فلسطين" وإنشاء حكومة عموم فلسطين ورفع علم فلسطيني، أي علم الثورة العربيّة الكبرى، وهو العلم الفلسطيني الحالي. وتحولت غزة إلى المكان الوحيد المتبقي من جنوب فلسطين، ثم مارست الإدارة المصرية نشاطها من 1952 إلى 1955، اعتبرت غزة مجالا استراتيجيًا لمصر، وراقبت مصر كل الممارسات السياسيّة الفلسطينيّة.

شهدت هذه الفترة توترات بين الفلسطينيين والإدارة المصريّة، على سبيل المثال قمع المتظاهرين حول مشاريع التوطين، والصراع الذي كان يتم بين الموالين لعبد الناصر والمشروع القومي وبين أنصار الإخوان المسلمين. واشتبكت بعض القوى الفلسطينية من شيوعيين وقوميين واخوانين مع الإدارة المصريّة إثر مشروع لتوطين اللاجئين، ولكنها لم تقوّض شعبيّة ناصر، مع بقاء الشيوعيين والاخوانين ضمن جمعيات ذات تأثير كبير في أوساط المعلمين وفي المخيمات. شكلت هذه الصدامات الأرضيّة الخصبة لولادة الكيانيّة الفلسطينيّة فيما بعد، والتي كانت وتيرتها أسرع بكثير من مناطق فلسطينية أخرى، وفي مشهد مغاير تماماً للضفة الغربيّة عن قطاع غزة – سأعود إلى هذه النقطة فيما بعد – شهدت فترة الحكم المصري صعوبات اقتصاديّة عميقة وشجعت الإدارة المصريّة القطاع الزراعي للحمضيات على حساب المنشات الصناعيّة البسيطة الذي تقهقرت بشكل ملحوظ.

2–2. خصوصيّة قانونيّة

حتى عام 1967، لم تمنح الإدارة المصريّة لمواطني غزّة أيّة حقوق أساسيّة، لا جنسية ولا مواطنة ولا جوازات، وحولت كل سكان قطاع غزة، بما فيهم المواطنين الأصليين، إلى حاملي وثيقة سفر للاجئين الفلسطينيين، وحولتهم للاجئين.[2] وفعليًا هذه نقطة يجب الإشارة إليها، وهي أنّ سياسة مصر بعيد اتفاقيّة كامب ديفيد 1978 غيّرت تمامًا تجاه فلسطيني قطاع غزة، وهذا يعني أنهم لا يستطيعون حتى المرور في قطاع غزة عبر مصر إلى مكان آخر، وإذا تحتم عليهم ذلك فإن مصيرهم البقاء لأيام في القاعات السفلية

[2] أصدرت الإدارة المصرية عن طريف حاكم قطاع غزة مجموعة من القرارات المتعلقة بالأوراق الثبوتية شهادات الميلاد ووثيقة السفر الخ، راجع جريدة الوقائع الفلسطينية وأرشيف الحكم المصري في قطاع غزة.

لمطار القاهرة، وهو ما يعرف بظاهرة الترحيل الجماعي.[3] كما وتعاملت الإدارة الأردنيّة بطريقة استبعاديّة لأهل قطاع غزة، حيث اشترطت على سكان القطاع الحصول على تصاريح وأوراق ثبوتية من طرف رئيس الهيئة الخيرية لأبناء قطاع غزة، والتي كان يرأسها السيد رشاد الشوا، أحد رجالات غزة، ومقرب من الأسرة الهاشمية. وعدم الممانعة لدخول الأردن بقي ساريا حتى هذه اللحظة لكل من ولد في قطاع غزة، واستمرّ هذا الوضع حتى 1994 عند صدور جوازات السفر الفلسطينيّة، الصادرة عن السلطة الفلسطينيّة.

2-3. فترة الاستعمار الإسرائيلي المباشر

بدأت العلاقة الأولى مع الاحتلال الإسرائيلي في 1956، مع العدوان الثلاثي على مصر وقطاع غزة، والتي دفعت مجموعات محلية للانتظام في المقاومة المسلحة، وجعلت من قطاع غزة في الخمسينات، الأرضيّة المناسبة لولادة الوطنيّة الفلسطينيّة عبر انخراط العناصر الشابة من قيادات فتح، والذين كان بعضهم قد ارتبط بشكل كبير مع الإخوان المسلمين، وعدد قليل مع الشيوعيين والقوميين، وأصبحت مخيمات اللاجئين المكان الخصب لكل هذه التنظيمات الجديدة من أجل مقاومة الاحتلال العسكري "الإسرائيلي". وارتكب المستعمر مجزرة خان يونس الشهيرة في مشهد لا زال أبناء المدينة يذكرونه.

بعد خضوع القطاع للاحتلال المباشر، مارس المستعمر عنفًا شديدًا بعد سقوط القطاع في 1967، كتعبير عن تصوّر إسرائيلي ممأسس في قطاع غزة، بطريقة تختلف عن تلك التي مارسها في الضفة الغربية، من حيث حجم خسائره بين جنوده، ومن حيث بحم قتله لأعداد كبيرة من الفلسطينيين، ومن حيث الأوامر العسكريّة التي أصدرها جيشه الاستعماري. هذه البدايات تفسر بانطلاق الكفاح المسلّح من قطاع غزة والتي بدأت مع الاخوانين والقوميين، ثم بحركة فتح وظاهرة محمد الأسود تشي جيفارا غزة والتنظيمات اليساريّة والقوميّة العربيّة والتي شكلت منعطفًا بالنّسبة للإسرائيليين، من حيث طبيعة المقاومة التي ترافقت مع عمليات رفض مدنية للاحتلال الإسرائيلي، والتي دفعت أرئيل شارون إلى خوض حرب ضد المخيمات في قطاع غزة، حيث شهد القطاع أطول فترات منع التجول وهدم بيوت داخل المخيمات بكثافة تذكر،وطردت مئات العائلات من مخيم الشاطئ واعتقل الآلاف وهدمت عشرات البيوت لتسمح للدبابات الإسرائيلية للمرور بين أزقة المخيمات، وأبعد مئات الأفراد خارج الأرض المحتلة، وصاحب ذلك سياسة إسرائيليّة منعت آلاف الفلسطينيين من الخروج من قطاع غزة، والذي يختلف تمامًا عن الضفة الغربية، حتى أنّ حامل البطاقة الغزيّة يتم التعامل معه بطريقة مغايرة، وهناك الكثير من المراجع التي تنقل لنا شهادات للجنود والضباط الذين عملوا في قطاع غزة، يسردون فيها ممارساتهم.[4]

[3] ظاهرة الترحيل الجماعي تعنى أن تقوم إدارة المرافئ الحدودية المصرية وتحديدا مطار القاهرة بحجز السافرين الفلسطينيين القادمين من العالم والمتجهين الى معبر رفح لتجميعهم حتى يكتمل عدد معين الباصات وقد تستغرق العملية ساعات وأحيانا أيام يرحل فلسطيني قطاع غزة بعدها للقطاع لضمان عدم دخولهم الاراضي المصرية. استمرت هذه الإجراءات طوال أكثر من 25 عاما وتتغير المعاملة وفق تغير علاقة مصر ونظرتها للفلسطينيين على المستوى السياسي.

[4] مركز المعلومات الإسرائيلي لحقوق الإنسان في الأراضي المحتلة (بتسيلم)، http://www.btselem.org/Arabic/Publications/Index.asp.

على المستوى القانوني، ابتكرت "إسرائيل" مجموعة من القوانين لخلق أشكال معيّنة من البطاقات مع تحويل القطاع إلى حقل تجارب، بدءاً من نظام منع التجول لفترات طويلة، ومنع النّزول إلى البحر، مروراً بالبطاقات الممغنطة والحواجز، وانتهاء بإقامة حواجز دائمة ذات ملامح حدود دوليّة، أي قلنديا، وذلك بعد نجاح تجربة غزة، مع إبقاء خصوصيّة لمعبر بيت حانون، والذي يمثل من ناحية هندسيّة اجتماعيّة تجسيدًا لأعلى درجات التّصميم الكولونيالي الصهيوني للفضاء الاجتماعي للآخر، وكذلك إنتاج بطاقات هُوية مختلفة بين الضفة وغزة، ونظام ترقيم مختلف، وهناك تجربة عمل الغزين في الضّفة الغربيّة، والتحرّك بين المنطقتين، والذي كان محدودًا. وابتداء من 1991 فرض جيش الاحتلال قيودًا جديدة، توجب عل الفلسطينيين الحصول على تصريح، وقامت الشرطة الإسرائيلية بملاحقة العمّال في مناطق 48 (إسرائيل)، وكانت أولويّة التّرحيل لمواطني قطاع غزّة ثم تم الحرمان التدريجي للطلاب الغزين من الإقامة في الضّفة الغربيّة.

مع تطبيق أوسلو، يعيش القطاع حالة جديّة من الحصار، أي ضرورة الحصول على تصريح شخصي لكل فرد من القطاع، لكل المواطنين، تثبيت المعبر الشمالي لقطاع غزة وتحويله إلى معبر دولي، وتعطي الحق بالعبور لبعض العمال والتجار ورجالات السلطة الفلسطينيّة، وفي 1994 سمح للغزين الخروج عبر معبر رفح ومن ثمّ جسر الملك حسين، وهذا للطلاب ولمن لديه أقارب في الضّفة ومنذ 1996 بدأت "إسرائيل" بفحص كلّ محاولة لتغيير العنوان من غزة للضّفة الغربيّة، وفى 1997 منعت "إسرائيل" الغزين من الخروج أو الدخول من الجسر دون تصاريح شخصية، وفي 1999 عملت على إقامة ممر آمن بين بيت حانون وتر قوميا وأغلق بعد سنة. وفي 2000 منعت "إسرائيل" الطلاب الغزين الدراسة في الضفة وبأثر رجعي، وفي 2001 منعت غير الغزين من دخول القطاع، وفي 2002 أعلنت "إسرائيل" أن الغزين مقيمين غير شرعيين في الضفة، وأبعدت عددًا كبيرًا من الطلاب إلى قطاع غزة، وفي 2005 اعتبر معبر قطاع غزة معبرًا دوليًا، وابتدءا من 2007 يسمح لبعض الحالات بالخروج إلى وقت صدور القرار العسكري القديم الجديد 1650.

2-4. على مستوى البنى الاجتماعيّة والاقتصاديّة

حطم الاحتلال الكولونيالي الثروة (Al–Dameer Association for Human Rights 2009) السّمكية والبنية الاقتصاديّة والاجتماعيّة لفئات الصيّادين، وعلى المستوى البيئي، تم تجريف غالبية أشجار قطاع غزة ودفيئاتها، ودمرت آلاف البيوت البلاستيكية وآبار المياه، وتمت سرقة المياه، وتخريب المشاتل وقتل آلاف رؤوس الماشية والدواجن و ضرب مزارعي التوت والزهور، وعمد إلى تخريب الطرق والبنية التحتيّة وشبكات توصيل المياه وقصف المباني العامة والمنشئات وبعض مرافق الآثار/ الأركيولوجيّة والمباني المرتبطة بتاريخ المدينة، ومنع إدخال المواد الصناعية والمواد الخام، وإعاقة وصول العمال إلى أماكن عملهم، وتدمير قطاعات كاملة، مثل قطاعات ورش الحدادة في قطاع غزة وتدمير جزئي للبنية الفندقية، وحجز البضائع ومولدات شبكات الكهرباء وشبكات الاتصالات، وتعتبر مدينة رفح من أكثر المدن التي تضررت، حيث تعرضت أكثر من ثلث بيوتها لعملية تهديم واسعة، وتم هدم معظم مباني القطاع، إضافة إلى ارتفاع نسبة البطالة في قطاع غزة وانخفاض نسبة المشاركة فى العملية الإنتاجية، كما وتراجعت معدلات الأجور اليومية، وهناك آثار للفقر وتدنى لمستوى المعيشة، إضافة إلى منع الناس حتى من النزول إلى البحر خلال أكثر من 23 سنة، واحتل أكثر من 45 بالمائة من مساحة قطاع غزة ثم سحب الجيش الاسرائيلى قواته ومستوطنيه من قطا غزة وأغلقه وحاصره وفك ارتباطه وأعلنه أخيرا تم التعامل معه ككيان معادٍ.

3. التّهميش الفلسطيني لغزة

يهتم هذا المحور في المداخلة بالتهميش الفلسطيني لغزة، المقصود وغير المقصود، على الصعيد الشعبي والسّياسي والأكاديمي. ندرك أنّ البحث في هذه القضية يحتاج إلى أكثر من الوقت المخصص للمداخلة، ونود التذكير أنّ تركيزنا على التهميش الداخلي ليس بغرض إغفال البحث عن التهميش الاستعماري الإسرائيلي.

3-1. التّهميش عبر آليات إعادة إنتاج خطاب استعماري مؤسس وكذلك عبر آليات داخليّة

يعتبر المجتمع الفلسطيني في قطاع غزة مجتمع محافظ تقليدي، مثله مثل التّجمعات الفلسطينية الأخرى، أي يخضع إلى آليات التأثر نفسها لاكتساب السّمات العامة للشخصيّة الثقافيّة العربيّة والفلسطينيّة، لكن أجريت مجموعة عمليات أخرى خاصة بغزة أضفت عوامل جديدة للخصوصية، حيث رافقها عمليّة أسلمة للمجتمع، حيث لعب الاستعمار الإسرائيلي دورًا أساسيًا لغض النظر عن رواد الحركة الإسلامية /المجمع الإسلامي في بداية الثمانينات حينها، وذلك بتكسير مقاهي شرب الخمر والنوادي الليلية والكازيتوهات[5] والاعتداء على الأعراس في الشوارع العامة و على الراقصات وضرب النساء والرجال ومنعهم من الاستجمام على شاطئ البحر، ولقد بدأت عمليّة منظمة ممنهجة لجعل مجتمع قطاع غزة مجتمعًا محافظًا، وهي ليست عمليّة تغيير لتصورات الناس، بل هي عمليّة منّظمة تمّ فيها تقليص مؤسّسات الفضاء العام من مسارح وسينمات، وبالمناسبة يجب التذكير بضرورة التيقظ من التّعميمات النمطيّة، حيث توجد في مدينة غزة سبع سينمات، بينما لا توجد سينما في الخليل والتي هي أكبر مدينة في الضّفة الغربيّة. لعب الاحتلال الإسرائيلي(من خلال غض الطرف والسماح بممارسة فرض إرادة المجمع الاسلامى بالقوة) إذاً دوراً في إعادة إنتاج المحافظة الاجتماعية. صاحب ذلك اعتداءات على المؤسسات "الوطنية" أي ذات التّوجه الدنيوي أو العلماني مثل جمعية الشبان المسيحية وبنك الدم والهلال الأحمر والاعتداء على الشخصيات العامة الخ.

نقدّم هنا بعض العناصر للتحليل السوسيولوجي عن التّهميش الفلسطيني، يضاف لها كم آخر، آثرنا ذكر بعضها فقط: نعرض هنا للإشارة أننا نقوم بعرض بعض التّصورات التي تقدم عن غزة والتي تقدم في بعض الكتابات الأكاديميّة، وما يتم تناوله في الصالونات السياسيّة (جزء كبير من هذه الملاحظات ينطلق من دراسات ميدانية وملاحظات معاشة). يلاحظ أنه عند التناول السوسيولوجي للمجتمع الفلسطيني، توضع غزة وقطاعها ضمن إطار تحليلي ثقافوي (culturaliste)، حيث تنتج مجموعة من التّصورات التي نجدها في بعض المراجع والتحليلات التي ترتكز على أن ثمة خصوصيّة ذات طابع ثقافوي للمجتمع الغزي أي أن هناك محدّدات ثقافيّة غزيّة ثابتة لا تاريخيّة تلغي التنوّع السوسيولوجي. أو قراءة جغرافية، أي اختزال التّحليل السوسيولوجي إلى المساحة الجغرافية، وأحيانا مقاربات ثقافوية تتعامل بأن ثمة ثوابت ثقافيّة ثابتة، غير تاريخيّة، نعرض هنا بعضًا منها:

[5] مقابلات أجريت من قبل الباحث سنة 1998 من قبل الباحث كجزء من رسالة الدكتوراة التي نوقشت سنة 2005، الأطروحة غير منشورة حتى الآن من ضمن الشخصيات التي تم مقابلتها فيحول الموضوع وفا الصايغ، حيدر عبد الشافى، يسرى البربرى، سعيد فلفل. إضافة لمعايشة الباحث الأحداث بمدينة غزة بين 1980-1981.

3-2. مقاربات تقافوية للمجتمع الفلسطينة بقطاع غزة

صحيح أنّ ثمة خصوصية لقطاع غزة، ولكنّ يبقى مجتمعًا فلسطينيًا مصغرًا يضم قرويين ومدنيين، ويشكل سكانه المكونات الاجتماعيّة والاقتصادية المختلفة، من أصول جغرافية مختلفة، (مدينية وقروية وبدوية من كل فلسطين التاريخيّة)، وطائفيّة ومذهبيّة ودينيّة، كما هو حال تجمّعات فلسطينية أخرى، وثمة تعقيدات على مستوى الوضع المحلي وثمة صراعات اجتماعية بين مكونات اجتماعية مختلفة، وصراعات أخرى بين فضاءات التّمايز الهويّاتي للمجموعات المختلفة، وتظهر هذه الصّراعات الاجتماعيّة الخفيّة في الأحزاب والمؤسّسات والبلديّات ومن خلال انتشار الزواج الداخلي وهناك حساسيّات مناطقيّة داخل القطاع نفسه وصراعات بين اللاجئين والمواطنين. كثيرة هي القراءات المختلفة التي تقدّم غزة وباقي مدنها كبلوك/وحدة، بمعنى غياب الفضاء الجغرافي في المكان دون مكان لأنها تلغي تنوعه، فيصبح مكانًا خطيرًا ومهددًا في الحس المشترك للتهريب وللأصولية وللإرهاب وللتخلف وللجماعات المتطرفة، وهو قد يؤثر على المنطقة بأسرها. يقال الضفة الغربية بتنوعها المديني والقروي مقابل غزة، ولا يلعب العامل الجغرافي وكبر السماحة دورًا في ذلك، فتقدّم غزة- القطاع- كمدينة على اعتبار أنها كل متماثل حتى سكانها يقدمون أنفسهم بأنهم من غزة ضمن آلية تقمّص ذاتي ينتجه الآخر.

بتلمسنا المتخيل والمعاش نجد أنّ مجتمع قطاع غزة تغيّر، ولكن لم تتغيّر بعض بناه التقليديّة، بمعنى أن النخب الفلسطينيّة التقليدية قد بقيت، من عائلات تقليدية وملاك أراضٍ وأصحاب بيارات وكبار تجار على حالها، أي ضمن شبكة فاعلين اجتماعيين في حقل اجتماعي، مع ترافق استمرارية التقاليد واستمرار الزواج الداخلي بين الفئات الاجتماعيّة وإبقاء الفصل الوهمي بين المخيّم والمدينة. مثلا من الناحية الحضرية، تشبه مدينة غزة التي تشابه مبدئيًا نابلس وتركيبتها من حيث لعبها دورًا اقتصاديًا وسياسيًا، كلواء ومتصرفيّة مع إقرار ببعض الفروقات الاقتصاديّة لتفوق اقتصادي نسبي لمدينة نابلس وفروقات لها علاقة بالبلدة القديمة.

عانى القطاع بفعل العزل والسياسات الخاصة من تنميط القطاع، وتم اختزاله في كثير من الكتابات والتحليلات حتى الأكاديمية، من قطاع غزة إلى غزة، أي إلغاء مدنه الأخرى رفح، وخان يونس، وبلداته بيت حانون، وبيت لاهيا، ودير البلح، وقراه خزاعة، وعبسان، وبني سهيلا، والقرارة إلى فكرة مدينة واحدة، وهو ليس فقط في الخطاب الاستعماري ولكنه أيضا معاد إنتاجه من قبل الخطاب الفلسطيني وحتى في بعض أوساط الأكاديميين.

نسرد هنا بعضًا منها، أي الكتب والدراسات التي تقدم غزة كمنطقة تستثنى من التحليلات، فعلى سبيل المثال وليس الحصر:

من أراد أن يشير الى التنوّع الطائفي لفلسطين، يستثنى غزة من التحليل، او يشير مثلا إلى وجود بضع عائلات في حين أن غزة تاريخيًا فيها من بداية القرن أكثر من 10 ألف مسيحي (إذا أضيف لها أعداد الإرساليات و اللاجئين الفلسطينيين من الساحل – يافا واللد وحيفا)، في حين أن مدينة نابلس فيها أقل من 400 مسيحي، ندرك أن عدد المسيحيين في فلسطين في تناقص، ولكنّها ظاهرة فلسطينيّة، وحتى مشارقيّة عربيّة. وثمة تصوّر وهمي مختلق عن صورة قطاع غزة، فحتى الدراسات التي تتناول المدن الساحليّة الفلسطينيّة تستثني غزة من تحليلاتها. إذا قام البعض بعمل دراسة عن الفقر في فلسطين، يقوم بإجراء مقارنة بين قرية سلفيت مع غزة، وكأن المقارنة منهجيًا مقبولة، أي مقارنة قرية من 300 شخص، مع مدينة فيها 580 ألف. هناك دراسات فلسطينيّة عن

التّكوينات الحضريّة تستثني غزة، وكأن غزة لا ميناء لها، ولم تعمل بتصدير الحمضيات، ولم يكن هناك منشآت اقتصاديّة واجتماعيّة وحضريّة مرتبطة بها.

على مستوى الدّراسات الأكاديميّة يلاحظ أن ثمة اهتمام من قبَل الباحثين الأوروبيين والأمريكيين بدراسة غزة، وخاصة ماضيها البعيد، الاثارى/ الأركيولوجي، في حين تظهر غزة في الحس العام كمدينة مسلوبة من تاريخها القديم، ويعرف القليل من الجيل الجديد عن مدينة غزة الهازمة للاسكندر الأكبر، فهي مدينة عمرها آلاف السنين بتاريخها الحربي والاقتصادي والديني والحضاري الخ. لصالح صورة مبهمة عن مدينة تعج بالفقر والبؤس والتخلف والتطرف، وهى ترى مثالا للبؤس في التخيل الوطني كما تقول ليزا تراكي وهى محقة (تراكي 2008، 53). وفى مشهد مألوف، تتم إعادة إنتاج التّصورات الذهنيّة الاستعماريّة من خلال العلاقة المعقدة بين المستعمِر والمستعمَر بمعنى فانون. (Fanon 1968) وأيضا وفق تصور خلدوني طبقا لعقيدة "ولع المغلوب بالغالب"، يظهر ذلك في الخطاب الشعبي الفلسطيني كما في الخطاب الرّسمي غير المعلن وحتى في كتابات الأكاديميين الفلسطينيين، هنالك تنميطا لغزة ولسكانها. ويعاد إنتاج أشكال التنميط الكولونياليّة، وتصبح غزة هي غيتو بمعنى التنميط، وغيتو بمعنى العزل الجغرافي وغيتو لينتج صورة متخيلة جماعية ضبابية للقطاع، وهنالك صور مشابهة لهذه الصورة للمستعمرين فيما يتم إنتاج "العنف الإسرائيلي" ورؤيته لغزة إلى إعادة بعض إنتاج الخطاب الاستعماري لبعض السكان، على اعتبار أن سكان الضفة الغربيّة مختلفين من حيث الامتيازات التي يمنحها الاستعمار بين سكان فلسطينيي 48 مقابل القدس، وسكان القدس مقابل الضفة الغربية، وسكان رام الله مقابل شمال الضفة الغربية، ومواصفة الضفة الغربية مقابل غزة، وتقع غزة بناءا على هذا المنطق المستعمر أدنى التراتبات الاجتماعية والذي بدوره يصنع هويات متخيلة لامتيازات لذوات اجتماعيّة واقتصاديّة مختلفة تعج بتنميط ثقافوي استعماري.[6] يتضح أيضًا من دراسات قام الباحث بها،[7] أن ثمة شعور بالفوقيّة من قبل سكان الضفة الغربيّة تجاه سكان قطاع غزة، وهذا ينسجم مع تصورات متوارثة.

ينتشر في الحس الفلسطيني المشترك نمط المبالغة في التأثير المصري على قطاع غزة وسكانه، والقراءة الآنية للمجتمع الفلسطيني في قطاع غزة، ترى أنه لا توجد في غزة تيّارات مناصرة لمصر باستثناء الفترة الناصريّة، والتي هي عبارة عن تيارات ارتبطت بمصر ناصر، أي مصر العروبة والوحدة. وخلال السنوات الثلاثين المنصرمة تقلصت العلاقة بين الفلسطينيين في غزة ومصر إلى أدنى درجاتها، بفعل منعهم من الدخول إلى مصر وإتباع سياسة التّرحيل، لا يوجد في غزة لا تيارات مساندة للأردن ولا تيارات مساندة لمصر كما هو الحال في الضفة الغربية، كما لا يوجد أعضاء برلمان فلسطينيين من غزة في البرلمان المصري، ولا يوجد رأسمال فلسطيني مؤثر كما هو الحال في الأردن، ولا توجد شخصيات تقوم بتهنئة الرئيس السادات كما يفعل بعض أبناء العائلات الكبيرة في نابلس والخليل والقدس بتهنئة الملك الأردني، أضف إلى ذلك أن الشيخ هاشم الخزندار قتل في اليوم التالي لإعلانه عن تصريح مبهم عن حكم ذاتي للفلسطينيين بعيد اتفاقية كامب ديفيد 1978.

[6] انظر مقالة عن ذهنية استعمارية توردها اغارزيان عن فلسطيني القدس (أغازريان 2010، 80-87).

[7] أطروحة ماجستير قدمت للحصول على شهادة الماجستير من جامعة نانت بفرنسا بعنوان مفهوم المواطنة في المجتمع الفلسطيني 1996 بالفرنسية (ELSAKKA 1997).

4. خاتمة

تدعى هذه الورقة أن ثمة تهميش فلسطيني قصدي وغير قصدي لغزة له عدة دلالات:

أولا، هشاشة الوطنيّة الفلسطينيّة، مثلها مثل أي وطنية أخرى، فأثناء الأزمات تتصاعد التعبيرات الجهويّة التي يتخيل من خلالها كل سكان منطقة بأن لديهم خصوصية وتفوق، ويصاحب ذلك تنميط ذاتي إيجابي لأفراد المجموعة، وتنميط سلبي متخيّل جمعي للمجموعة الأخرى (والمجتمع الفلسطيني لا زال مجتمعًا جهويًا/مناطقيا).

ثانيا، تناقش هذه الورقة ان المجتمع الفلسطيني بقطاع غزة هو مجتمع متنوع بخصوصيات المجتمع الفلسطيني المعرفة(طائفيا، واجتماعيا، واقتصاديا)، ثمة مجموعة من الخصوصيات منها: خصوصية تحويل المواطنين الفلسطينيين إلى لاجئين، عزل قطاع غزة عن محيطها العربي باستثناء حقبات الخمسينات، (تغير هذه العلاقة) بعد الستينات. الانتقال من منطقة مهمشة في الصّراع العربي الإسرائيلي إلى منطقة ولدت فيها الكيانية الفلسطينية، (مجموعة من الشروط الموضوعية المرتبطة بغياب أوراق ثبوتية لجنسية أخرى كما هو الحال في الضفة الغربية،، جعلت من غزة المنطقة التي أنتجت الوطنية الفلسطينية (الفلسطنة). حجم العنف الاستعماري الإسرائيلي كان أكثر دموية، مع خلق نظام قانوني وإداري مغاير.

ثالثا، بفعل الأزمة فى المشروع الوطني الفلسطيني، وبفعل عوامل خارجية لعب الاستعمار الاسرائيلى دورًا فيها، أي سياسة الفصل الجغرافي بين الوحدتين، وتلاشي العلاقات بين المكونين وتنميط محلى مرتبط بتكوّن الهويّة الفلسطينيّة (localisme identitaire). وهذا ليس مشهدًا فلسطينيًا، بل هو مشهدًا عالميًا. عزّز الانقسام الداخلي بين أكبر فصيلين الحساسيات الجهويّة بفعل ممارسات السلطتين/ الفصيلين فى المنطقتين. ويذكر أن منع المواطنين الفلسطينيين من التظاهر مع إخوتهم في غزة فسّر بأنه امتداد للجهويّة، ورأى فيه الآخر بأنه امتداد لهذه الحساسيات الجهويّة الكامنة ويتردّد في الحس العام. بعضًا من تصوراتها، كالقول مثلا في الحلقات السياسيّة أن ما حدث في غزة لا يمكن تكراره في الضّفة الغربيّة، لأن الثقافة هناك تلعب دوراً بذلك.

5. المراجع

أغازريان، اليز. 2010. "المقدسيون وانشطار الهوية: من وحي فرانز فانون." *مجلة الدراسات الفلسطينية*، 21(82): 80-87.

تراكي، ليزا. 2008. *الحياة تحت الاحتلال في الضفة الغربية والقطاع، الحراك الاجتماعي والكفاح من أجل البقاء*. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

Abu-Amr, Ziad. 1993. "A historical and political background." *Journal of Palestine Studies* 22(4): 5- 19.

Anderson, Benedict. 1991. *Imagined Communities: Reflections on the origin and spread of nationalism*. London: Resived ed.

Bourdieu P., and C. Passeron. 1979. *La reproduction. Eléments pour une théorie du système d'enseignement*. Paris: Minuit.

Bucaille, Laetitia. 1998. *Gaza, la violence de la paix*. Paris: Presses de la Fondation nationale des sciences politiques.

Elsakka, Abaher. 1997. la notion de la citoyenneté dans la société palestinienne. DEA, université de Nantes.

Fanon, Frantz. 1968. *Les damnés de la terre*. Paris: Gallimard.

Khalidi, Rashid. 2003. *L'identité palestinienne, la construction d'une conscience nationale moderne*. Paris: La Fabrique.

Laurens, Henry. 2000. *L'Orient arabe. Arabisme et islamisme de 1798 à 1945*. Paris: Armand Colin.

Lesch, Anne. 1986. "Gaza un lieu oublié de la Palestine." *Revue d'études palestiniennes*, 5(1): 17-36.

Picaudou, Nadine. 1989. *Le mouvement national palestinien, genèse et structures*. Paris: L'Harmattan.

Roy, Sara, and Gary Taubes. 1987. "Gaza, hors des regards." *Revue d'études palestiniennes*, 7(1): 73-96.

Al–Dameer Association for Human Rights. 2009. *A special report on marine environment in the Gaza Strip,* Environmental Report Series, June. Gaza: Al–Dameer Association for Human Rights.